المال وعلم الاقتصاد

تقدَّم في الجزء الماضي ان النفع شرط لازم للمال فلا يكون المال مالاً الَّا اذا كان نافعاً. ولكن هذا النفع يزول غالبًا باستعمال المال . فاذا حُرِق الفحم وأكل الخبز وبلي الثوب لم يعد لشيء منها منفعة . لان منفعة الفحم توليد الحرارة فاذا تولَّدت منهُ واستُعملت فقدها واستحالت دقائقهُ الى مادة أُخرى لا ثمن لها . ومنفعة الخبز تغذية الانسان وتوليد القوة والحرارة فيهِ فاذا أكلهُ واغتذى بهِ اخذ منفعتهُ منهُ ولم تعد فضلاتهُ صالحة للغذاء. ومنفعة الثوب الزينة والوقاية من الحرّ والبرد فاذا لُبِس حتى بلي زالت منهُ هذه المنفعة ولم يعد صالحًا للزينة ولا للوقاية . وقد تزول منفعة المادة بدون ان ينتفع بها احد مثلما اذا انتن السمك فلم يعد صالحًا للاكل او مضى زمان الرزنامة قبل ان تستعمل او غرقت السفينة في قلب البحر او احترق القمح على البيدر وهلمَّ جرًّا . والاقتصاد يوجب على الناس ان يستفيدوا من كل النفع الذي يمكن اكتسابهُ من المال وان يستعملوا المال وقتما تكون منفعتهُ على اشدها

ومن المال ما لا تزول منفعتهُ بالاستعمال كالكتب والصور والتحف . فانهُ يمكن للانسان ان ينتفع من الكتاب الواحد مرةً بعد مرة بعد أُخرى . وان ينتفع منهُ كثيرون في ازمنة مختلفة . وما قيل في الكتب يقال في الصور والتحف المختلفة . ولذلك تكثر منفعة هذه الاشياء بانتقالها من شخص الى آخر او بعرضها في مكان عمومي حتى يراها كثيرون . وعلى هذا المبدإ انشئت المكاتب والمتاحف العمومية . لان الكتاب الذي في مكتبة عمومية قد ينتفع بهِ الوف من القراء كل سنة ولا يخسر شيئًا من نفعهِ والآلة التي في متحف عمومي قد ينتفع برؤيتها الوف من الصناع كل سنة ولا تخسر شيئًا من نفعها . لذلك يجب انشاء هذه المنافع العمومية في كل بلد لان نفقة انشائها لا تحسب شيئًا في جانب فوائدها الكثيرة المتعدِّدة . بخلاف المنافع الخصوصية التي تُنفَق عليها الاموال الكثيرة ولا ينتفع بها الَّا صاحبها او لا ينتفع بها احد

واذا كان نفع المال يزول حال استعمالهُ كما في الطعام فلا ينتفع بهِ الَّا شخص واحد وحالما ينتفع بهِ لا يبقى لهُ نفع وجب على الحكيم المقتصد ان لا يستعمله الَّا عندما يمكنهُ ان ينتفع بكل نفعهِ فلا يأكل وهو غير جائع ولا فوق الشبع لانهُ لا ينتفع من الطعام في هذين الحالين . واذا ناه في قفر موحش ولم يكن معهُ الَّا قليل من الطعام وجب ان لا يأكلهُ دفعةً واحدة بل ان يتبلَّغ منهُ بما يمسك رمقهُ لئلاَّ تطول مدة تيههِ في ذلك القفر فيهلك جوعًا . ويجب على الصانع ان لا ينفق

كل دخلهِ عندما تروج صناعتهُ مثلاً تكسد بعد مدة فيحتاج الى القوت الضروري بل ان يقتصد في نفقتهِ ولا ينفق وقت الرخاء الا ما يحتاج اليهِ حتى يكون لهُ ما ينفقهُ وقت الشدة . وكم من مرة رأينا كثيرين من اهالي بلادنا يهملون هذه القاعدة فالفلاح منهم ينفق فوق احتياجهِ وقت الخصب ويطعم مواشيهُ القمح وقت الحصاد ويقتصر على غث الطعام وقت القحط وتهلك مواشيهِ جوعًا ايام الشتاء . والتاجر اذا راجت تجارتهُ اولم الولائم ولبس الحرير والذهب ولم يجُل الا راكبًا واذا كسدت اكتفى بالقليل من الطعام والرثيث من اللباس وجال يومهُ كلهُ ماشيًا . والشاب والكهل ينفقان اموالاً كثيرة على الملذات والملاهي ثم اذا بلغا سن الشيخوخة تضوّرا جوعًا . وهذا عين الاسراف وعدم التدبير وامثلتهُ كثيرة والشرور الناتجة عنهُ اكثر من ان تحصى ودواؤها الوحيد تعليم الناس ان لا ينفقوا شيئًا الا عندما ينتفعون بكل نفعهِ . فاذا رسخت هذه القاعدة في اذهانهم وجروا عليها نجّتهم ونجّت البلاد كلها من شرور كثيرة وازالت اكثر ما نراهُ في بلادنا من الفقر والشقاء . فعسى ان ينتبه اليها جمهور القرّاء ويعملوا بها ويربوا اولادهم عليها

ويزعم قوم انهُ يجب عليهم ان ينفقوا بسخاء ترويجًا للتجارة وباقي الاعمال ويقولون انهُ اذا اقتصد كل الناس في نفقاتهم وخزنوا اموالهم تكسد سوق التجارة وينقرض المال . ومن مذهب التجار التصديق لهذا القول ترويجًا لتجارتهم وتكثيرًا لارباحهم ولكنهُ قول فاسد لانهُ اذا خزن الغني فضتهُ وذهبهُ في صندوقهِ اشتدَّ احتياج الناس الى الذهب والفضة فتطلبوهما من معادن الارض وراجت بذلك صناعة استخراج المعادن وما يتعلّق بها من الصنائع والاعمال كما لو انفقها على الطعام والشراب . واذا اعطاها لصرّاف مدَّ الصراف بها اهل الزراعة والصناعة والتجارة فراجت الاعمال كما لو انفقها الغني على نفسهِ واكثر . فليست المنفعة وعدمها في انفاق المال بل في الغاية التي يُنفق لاجلها . فان أُنفق على وليمة فيهِ لذّة وقتية تزول حالاً وقد يعقبها الالم والوجع وان أُنفق على فتح سكة حديدية خفّت بهِ مشقات السفر على كثيرين ودامت لذتهُ ومنفعتهُ ما دامت تلك السكة . فيجب ان تكون المنفعة الحاصلة من انفاق المال هي الغاية التي يُنفق لاجلها

ويزعم قوم آخرون انهُ لا منفعة من الانفاق قط فيضعون اموالهم عند الصيارفة ويتركونها حتى تربو سنة بعد أُخرى او يخزنونها في صناديقهم ولا ينتفعون بها ولا ينفعون غيرهم وهم البخلاء الذين يحرمون انفسهم كل لذّة لكي يصيروا اغنياء . ولا ضرر منهم بل هم ينفعون من يخافهم ويستولي على اموالهم وينفعون البلاد كلها اذا وضعوا مالهم في البنوك لان البنوك تعمل الاعمال العمومية النافعة . وهؤلاء البخلاء خير من المسرفين ولكنهم لو تأملوا قليلاً لرأوا انهم فقراء وهم يحسبون انفسهم اغنياء . لان المال لا يحسب مالاً لصاحبهِ ما لم يكن نافعًا ولذًّا لهُ فان كانوا لا ينتفعون بمالهم ولا

يلذون به فهو ليس لهم . هذا فضلاً عن انه لو كثر عدد البخلاء وكثرت اموالهم التي يضعونها في البنوك عن احتياج البلاد ما بقي في الزائد منها منفعة لاحد

وينتج من ذلك انه يلوق بكل احد ان ينفق امواله على اسلوب يناله منه النفع الاعظم لنفسه وانسبائه واصدقائه واهالي بلاده

خيالات الاصحّاء وهواجسهم

روى مطران كارليل الانكليزي ان اثنين من طلبة العلم اتفقا على الاجتماع في مدرسة كمبردج الجامعة في وقت معلوم . وفيما كان احدهما في جنوبي البلاد قُبيل الوقت المعين لاجتماعهما استيقظ ليلاً فرأى خيال الطالب الآخر جالساً عند سريره وثيابه مبلولة بالماء . فخاطبه فلم يردّ له جواباً بل انغض رأسه واختفى من امام عينيه ثم ظهر له ثانيةً تلك الليلة واختفى كما اختفى اولاً . وبعد ايام سمع هذا الطالب ان صديقه قد مات غرقاً في نحو الوقت الذي رأى خياله فيه

وذكر الدكتور فشر الجرماني حادثة من هذا النوع جرت له وهو في مدرسة ورزبرج الجامعة . قال استيقظتُ في احد الايام كئيباً كاسف البال على غير عادتي ولم اكن مريضاً ولا مصاباً بشيء يوجب القلق . فاحترتُ في امري وخفت ان أُصاب بمرض وحاولت ان انفي ذلك من ذهني واظهر ما اعتدتُ عليه من طلاقة الوجه ولا سيما في محضر الاصدقاء فلم استطع . وسألني اثنان عن سبب كدري فلم أجد كلاماً اجيبهما به . ولبثت على ذلك صبيحة ذلك اليوم كله حتى الظهر وحينئذٍ ورد لي تلغراف يقول فيه ان جدّتي مريضة في حالة الخطر الشديد وقد طلبت ان تراني . وللحال زال ما بي من الغم كانه لم يكن . ثم ورد لي تلغراف في المساء يقول فيه قد زال الخطر عن جدتك وابتدأ زواله من الظهر فصاعداً

وذكرت امرأة ادورد برَوْتن انها ايقظت زوجها ذات ليلة وقالت له رأيتُ الآن امراً مهولاً حدث في فرنسا وهو ان مركبة اصابها مصاب باغت فتكسّرت واجتمع الناس حولها وحملوا منها شخصاً واتوا به الى احد البيوت ووضعوه على سرير فتفرّستُ فيه واذا هو دوك اورليان . ثم اجتمع حوله الملك والملكة وكثيرون من العائلة الملكيّة وشخصوا اليه وعيونهم تسكب دموعاً سخية . ورأيت رجلاً كانه طبيب انحنى فوقه واخذ يجس نبضه باحدى يديه وينظر الى ساعته وهي في الاخرى ولكنني لم اعرفه لانني لم ارَ وجهه . ثم اختفى كل ذلك من امام عينيّ كانه لم يكن . ولمّا اصبح الصباح كتبت كل ما رأيت في كتاب . ولم يمضِ يومان او ثلاثة حتى نشرت جريدة التيمس خبر موت